سـورة الفرقان

هى مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، وعدد آيها سبع وسبعون ، ونزلت بعد سورة يس .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة بكونه مالكا لما فى السموات والأرض مصرفا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع والوضع الأنيق ، وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا ، وافتتح هذه بما يدل على تعاليه فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هاديا وسراجا منيرا .

(٢) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول وإنزال الكتاب عليه لإرشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذمّ الجاحدين لنبوّته بقولهم : إنه رجل مسحور ، وإنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق إلى آخر ما قالوا .

(٣) فى كل من السورتين وصف السحاب وإنزال الأمطار وإحياء الأرض الجرز فقال فى السالفة : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً الخ » وقال فى هذه : « وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا الخ » .

(٤) ذكر فى كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا تجزيهم فتيلا ولا قطميرا فقال فى الأولى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ الخ » وقال فى هذه : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(٥) وصف النشأة الأولى للإنسان فى أثنائهما فقال فى الأولى : « وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وفى الثانية : « وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢).

شرح المفردات

تبارك : من البركة ، وهى كثرة الخير لعباده بإنعامه عليهم وإحسانه إليهم كما قال « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » والفرقان : هو القرآن ، سمى بذلك لأنه فرق فى الإنزال كما قال : «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ » على عبده : أي على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، وتنبيها إلى أن الرسول لايكون إلا عبدا للمرسِل ، وفيه ردّ على النصارى الذين يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام ، للعالمين : أى الثقلين من الإنس والجن ، فقدره : أى هيأه لما أعده له من الخصائص والأفعال :

المعنى الجملى

حوت هذه السورة توحيد الله و إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، و بيان صفات النبى ، والرد على من أنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم ، ثم بيان أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من الأهوال ، ثم ختمت بأوصاف عباده المخلصين الذى يمشون على الأرض هونا ، ثم ذكر جلال الله وتصرفه فى خلقه وتفرده بالخلق والتقدير .

الإيضاح

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) حمد سبحانه نفسه على ما نزله على رسوله من القرآن الكريم لينذر به الثقلين الجن والإنس ويخوفهم

بأسه ، وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير مع أن الرسول مرسل بهما ، من قِبَل أن السورة بصدد بيان حال المعاندين المتخذين لله ولدا والطاعنين فى كتبه ورسله واليوم الآخر .

وخلاصة ذلك — تعالى الله عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن المعجز الناطق بعلوّ شأنه ، وسمو صفاته ، وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح ، على عبده محمد صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس و يخوفهم بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلهم من الأمم .

ونحو الآية قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » .

ثم وصف سبحانه نفسه بأربع صفات من صفات الكبرياء :

(١) (الذى له ملك السموات والأرض) أى له السلطان القاهر عليهما ، فله القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجادا و إعداما وأمرا ونهيا على حسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح .

(٢) (ولم يتخذ ولدا) أى ولم يكن له ولد كما زعم الذين قالوا ذلك المسيح وعزير والملائكة ، كما حكى الله عنهم فى قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ » وقوله : « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ » .

(٣) (ولم يكن له شريك فى الملك) أى ما كان لله شريك فى ملكه وسلطانه يصلح أن يعبد من دونه ، فأفردوا له العبادة وأخلصوها له دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والملائكة والجن والإنس .

وفى هذا ردّ على مشركى العرب الذين كانوا يقولون فى تلبيتهم للحج : « لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك » .

(٤) (وخلق كل شيء فقدّره تقديرا) أى وأوجد كل شيء على حسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة ، وهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال التى تليق به ، فأعد الإنسان للإدراك والفهم والتدبر فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصناعات المختلفة والانتفاع بما فى ظاهر الأرض وباطنها ، وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها و بإدراكها .

والخلاصة — إن كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتسخيره وتقديره ، ومن كان كذلك فكيف يخطر بالبال أو يدور فى الخلد كونه سبحانه والدًا له أو شريكا له فى ملكه كما قال : « بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ » الآية.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) .

الإيضاح

بعد أن وصف سبحانه نفسه بصفات العزة والجلال ، و بيّن وجه الحق فى ذلك أردفه بحكاية أباطيل عبدة الأوثان الذين اتخذوا من دونه آلهة ، تعجيبا لأولى النهى من حالهم ، وتنبيها إلى خطأ أفعالهم ، وتسفيها لأحلامهم ، فقد انحرفوا عن منهج الحق وركبوا المركب الذى لا يركبه إلا كل آفن الرأى ، مسلوب العقل .

وقد أبان سبحانه ما بها من النقص من وجوه متعددة :

(١) إنها لا تخلق شيئا ، والإله يكون قادرا على الخلق والإيجاد .

(٢) إنها مخلوقة والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنيا عن كل ماسواه .

(٣) إنها لاتملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها ، ومن كان كذلك فلا فائدة فى عبادته و إجلاله وتعظيمه .

(٤) إنها لاتقدر على التصرف فى شىء ما ، فلا تستطيع إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى و بعثهم من قبورهم ، ومن كان كذلك فكيف يسمى إلها، وتعطى له خصائص الآلهة من الخضوع لعظمته والإخبات لجلاله .

وعلى الجملة فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق المالك لكل شىء المتصرف فيه بقدرته وسلطانه وعبدوا ما لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وليس بعد هذا من حماقة ولا يرضى بمثله من له مُسكة من عقل ، ولا إثارة من علم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً (٦) .

شرح المفردات

الافتراء:الاختلاق والكذب، من قولهم: افتريت الأديم ـ الجلد ـ إذا قطعته للإفساد ، جاءوا : أى أتوا ، والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه ، والزور : الكذب ، والأساطير : واحدها أسطار أو أسطورة كأحدُوثة ، وهو ما سطره المتقدمون ، اكتتبها : أى أمر بكتابتها ، تملى عليه : أى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها ، بكرة وأصيلا : أى صباحا ومساء ، والمراد دائما .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم أولا فى التوحيد ثم فى الرد على عبدة الأوثان - أردف ذلك بالرد على الطاعنين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قسموا مطاعنهم قسمين : مطاعن فى القرآن ، ومطاعن فيمن نزل عليه القرآن .

روى أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحرث إذ هو الذى قال هذه المقالة ، وعنى بالقوم الآخرين عدّاسا مولى حويطب بن عبد العُزّى ، ويسارا مولى العلاء بن الحضرمى ، وأبا فُكَيْهَة الرومى ، وكانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها ، فأسلموا ، وكان النبى يتعهدهم ويختلف إليهم ، ثم قال النضر ما قال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) أى وقال الكافرون : إن هذا القرآن ليس من عند الله بل اختلقه محمد ، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب ممن أسلموا وكان يتعهدهم ويختلف إليهم : «تقدم ذكر أسمائهم» فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة ، وهو يصوغها بلغته وأسلوبه الخاص .

فرد الله عليهم مقالهم فقال :

(فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد وضعوا الأشياء فى غير مواضعها وكذبوا على ربهم ، إذ جعلوا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - إفكا مفترى من قبل البشر ، وكيف يتقوّلون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم ذوو اللّسن والفصاحة والغاية فى البلاغة ، فعجزوا أن يأتوا بمثله ، ولو كان ذلك فى مُكْنَتهم ما ادخروا وسعا فى معارضته ، وقد ركبوا الصعب والذلول ليدحضوا حجته ويبطلوا دعوته ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينوا هم بغيرهم ، فما مثله فى اللغة إلا مثلهم

فلما لم يفعلوا علم أنه قد بلغ الغاية التى لاتجارى وانتهى إلى حد الإعجاز ـ إلى أنه اشتمل على الحكم والأحكام التى فيها سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب التى لاتصل إليها مدارك البشر ولا عقولهم .

و بعد أن حكى عنهم قولهم فى الافتراء بإعانة قوم آخرين عليه ـ حكى عنهم طريق تلك الإعانة .

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى وقال المشركون الذين قالوا إن هذا إلا إفك مفترى : ما هذا إلا أحاديث الأولين الذين كانوا يسطرونها فى كتبهم من نحو أحاديث رستم واسفنديار ـ اكتتبها من اليهود فهى تستنسخ منهم وتقرأ عليه ليحفظها غدوة وعشيا : أى قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم ، وقد عنوا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال ، وهذه جرأة عظيمة منهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائما .

ثم أمره الله تعالى بإجابتهم عما قالوا بقوله :

(قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) أى قل لهم ردّا وتحقيقا للحق : ليس ذلك كما تزعمون ، بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لايعزب عن علمه شىء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لاتحوم حوله الأفكار ، ومن ثم أعجزكم بفصاحته و بلاغته ، كما أخبركم فيه بمغيّبات مستقبلة وأمور مكنونة لايوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير .

وقد وصف سبحانه نفسه بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية ، فالجلية المعلومة من باب أولى ، إيذانا بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر .

(إنه كان غفورا رحيما) أى إنكم استوجبتم العذاب بمكايدتكم لرسوله ، لكنه لم يعجله لكم رحمة بكم ، رجاء توبتكم وغفران ذنوبكم ، ولولا ذلك لصبّ عليكم العذاب صبّا .

وفى هذا إيماء إلى أن هذه الذنوب مع بلوغها الغاية فى العظم ـ مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصلة إليهم بعدها ؛ فلا ييأسوا منها بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من معاداة الرسول ومخاصمته .

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

شرح المفردات

مسحورا : أى سُحر فاختلّ عقله ، الأمثال : أى الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ، فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم ، أعتدنا : أى هيأنا والسعير : النار الشديدة الاشتعال ، رأتهم : أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد ، من قولهم : دور تتراءى أى تتناظر ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن والكافر

لاتتراءى ناراهما» أى لاتتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك فى أمور الدين ، والتغيظ : إظهار الغيظ ، والمراد صوت التغيظ ، والزفير : إخراج النفَس بعد مده ، مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل ، والثبور: الهلاك ، وجنة الخلد: هى التى لاينقطع نعيمها، مسئولا: أى جديرا أن يسأل و يطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه شبهتهم فيما يتعلق بالمنزَّل وهو القرآن ـ ساق شبهتهم فى المنزّل عليه ، وهو الرسول على الوجه الذى ذكره، ثم فنّد تلك الشبه و بين سخفها وأنها لاتصلح مطعنا فى النبى ، ثم حكى عنهم نوعا ثالثا من أباطيلهم وهو تكذيبهم بيوم القيامة ، ثم وصف ما أعد للكافرين فيه مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى يسمعون لها تغيظا وزفيرا ، ووضعهم فيها مقرنين فى الأصفاد ، وندائهم إذ ذاك بقولهم يا ثبوراه ، ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم بوصف ما يلقاه المتقون فى جنات النعيم : مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذى لاخلف لوعده .

الإيضاح

حكى الله هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبى تمنع النبوة فى زعمهم :

(١) (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟) أى أىّ شىء ميزه عنا وجعله يدعى النبوة مع أنه يأكل كما نأكل و يشرب كما نشرب .

(٢) (و يمشى فى الأسواق) لابتغاء الرزق كما نفعل ، فهو مثلنا فمن أين له الفضل علينا ؟ وهم يقصدون بذلك استبعاد الرسالة عنه ، لمنافاتها للأكل والشرب وطلب المعاش ، وكأنهم قالوا : إن صح مايدعيه ، فما باله لم يخالف حاله حالنا ولم يؤت ميزة دوننا .

وما هذا منهم إلا لضعف عقولهم وقصور إدراكهم ، فإن الرسل لم يمتازوا بأمور حسية ، بل بصفات روحية ، وفضائل نفسية فطرهم الله عليها توجب صفاء عقولهم وطهارة نفوسهم ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » .

(٣) (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) أى فهلا أنزل إليه ملك من عند الله يكون شاهدا على صدق ما يدعيه ، ويرد على من يخالفه ، وشبيه بهذا ماقال فرعون عن موسى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » .

(٤) (أو يلقى إليه كنز) أى وهلا أنزل عليه كنز من السماء ينفق منه حتى لايحتاج إلى المشى فى الأسواق لطلب المعاش .

(٥) (أو يكون له جنة يأكل منها) أى وهلا كان له بستان يعيش من غلته كما يعيش المياسير من الناس .

قال صاحب الكشاف : إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكا ، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك يعينه ، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفودا بكنز ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل ويرتزق منه اه .

وعن ابن عباس قال : إن عقبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البحترى والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبّه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك ، قال فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا يا محمد : إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن

نسودك ، و إن كنت تريد به ملكا ملكناك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، و إن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بينى و بينكم ، قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فسل لربك وسل لنفسك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول و يراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة و يغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا، فأنزل الله فى ذلك هذه الآية . أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر .

و بعد أن حكى عنهم أولا أنهم يثبتون له كمال العقل ولكنهم ينتقصونه بصفات فى شئون الدنيا ـ حكى عنهم ثانيا أنهم نفوا عنه العقل بتاتا وادّعوا أنه مختل الشعور والإدراك و إلى هذا أشار بقوله :

(وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى وقال الكافرون الظالمون لأنفسهم بنسبتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو منه براء ، و يدل العقل والمشاهدة على نفيه عنه : ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلّ عقله فهو لا يعى ما يقول ، ومثله لا يطاع له رأى ، وهذا منهم ترقّ فى انتقاصه ، وأنه لا يصلح للنبوة بحال .

ولما ذكر ضلالاتهم التفت إلى رسوله صلى الله وسلم مسليا له بقوله :

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى انظر واعجب لهم : كيف جرءوا على التفوّه بتلك الأقاويل العجيبة ، فاخترعوا لك صفات وأحوالا بعيدة كل البعد عن صفاتك التى أنت عليها ، فضلوا بذلك عن طريق الهدى

وصاروا حائرين لايدرون ماذا يقولون ولا ما يقدحون به فى نبوتك إلا مثل ذلك السُّخْف والهذَر .

والخلاصة — إن ما أتوا به لايصلح أن يكون قادحا فى نبوتك ولا مطعنا فيك فإن كان لهم مطعن فى المعجزات التى أتيت بها فليفعلوا ، ولكن أنى لهم ذلك ؟ .

ثم رد على ما اقترحوه من الجنة والكنز بقوله :

(تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) أى كثر خير ربك ، فإن شاء وهب لك فى الدنيا خيرا مما اقترحوا فإن أراد جعل لك فى الدنيا مثل ما وعدك به فى الآخرة ، فأعطاك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وآتاك القصور الشامخة والصياصى التى لايصل إلى مثلها أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنه أراد أن يكون عطاؤه لك فى الدار الباقية الدائمة ، لا فى الدار الزائلة الفانية ، وإنما كانت خيرا مما ذكروا ؛ لكثرتها وجريان الأنهار من تحت أشجارها وبناء المساكن الرفيعة فيها ، والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا .

ثم انتقل من كلامهم فى البعث وأمر الساعة مبينا بذلك السبب فى عدم تصديقهم برسوله فقال :

(بل كذبوا بالساعة) أى ما أنكر هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق ، وتقوّلوا عليك ما تقوّلوا ، إلا من قِبَل أنهم لايوقنون بالبعث ، ولا يصدقون بالثواب والعقاب .

والخلاصة — إنهم أتوا بأعجب من هذا كله وهو تكذيبهم بالساعة ، ومن ذلك لاينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها .

ثم توعدهم وبين عاقبة أمرهم وما كتب لمثلهم من الخيبة والخذلان فقال :

(وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا

وادعوا ثبورا كثيرا) أى إنا أعددنا لمن كذب بالبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء ، نارا تسعر وتتقد عليهم إذا كانت منهم بمرأى الناظر سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ ؛ لشدة توقدها ، وصوت الزفير الذى يخرج من فم الحزين المتهالك حسرة وألما .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال : « إن جهنم لتزفر زفرة لايبقى ملك مقرب ولا نبىّ مرسل إلا ترعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه فيقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى » .

و إذا ألقوا منها فى مكان ضيق قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال والسلاسل ، استغاثوا وقالوا يا ثبوراه : أى يا هلاكنا احضر فهذا وقتك ، فيقال لهم : لاتنادوا هلاكا واحـدا وادعوا هلاكا كثيرا : أى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا ، إنمـا ثبوركم منه كثير ، لأن العذاب ألوان وأنواع ، ولكل منها ثبور لشدته وفظاعته .

وخلاصـة ذلك — إن الله قد أعدّ لمن كذب بالقيامة نارا مستعرة إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها ، و إذا طرحوا منها فى مكان ضيق وهم مقرنون فى السلاسل والأغلال تمنوا الهلاك ليسلموا مما هوأشد منه كما قيل : (أشد من الموت ما يتمنى معه الموت) فيقال لهم حينئذ : لاتدعوا هلاكا واحدا فإنه لايخلصكم بل اطلبوا هلاكا كثيرا لتخلصوا به ـ والمقصد من ذلك تيئيسهم مما علقوا به أطماعهم من الهلاك ، وتنبيه إلى أن عذابهم أبدىّ لاخلاص لهم منه .

و بعد أن وصف عقاب المكذبين بالساعة ، أردفه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال :

(قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون ؟) أى قل لهؤلاء المكذبين تهكما بهم وتحسيرا لهم على ما فاتهم : أهذه النار التى وصفت لكم خير أم جنة الخلد التى يدوم نعيمها ولا يبيد ، وقد وعدها من اتقاه فى الدنيا بطاعته فيما به أمره ونهاه .

ثم حقق أمرها تأكيدا للبشارة بقوله :

(كانت لهم جزاء ومصيرا) أى كانت هذه الجنة لهم جزاء أعمالهم فى الدنيا بطاعته ، وثوابا لهم على تقواه ، ومرجعا لهم ينتقلون إليه فى الآخرة .

ثم وصف مقدار تنعمهم فيها بقوله :

(لهم فيها ما يشاءون خالدين) أى لهم فى جنة الخلد ما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ونحو ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهم فيها خالدون أبدا بلا انقطاع ولا زوال .

(كان على ربك وعدا مسئولا) أى وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم حين سألوه بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هٰؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَـكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلاَ نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) .

شرح المفردات

ضل السبيل : فقده وخرج عنه ، والذكر : ماذكر به الناس على ألسنة أنبيائهم ، بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع ، صرفا : أى دفعا للعذاب ، يظلم : أى يكفر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعد لأولئك المكذبين بيوم القيامة من الشدائد والأهوال فى النار ودعائهم على أنفسهم بالويل والثبور - أردفه بذكر أحوالهم مع معبوداتهم من دون الله وتوبيخهم على عبادة من عبدوا من الملائكة وغيرهم ، ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم فيما نسبوه إليهم ، ثم بين أن العابدين لا يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم ولا يجدون من يستنصرون به .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟) أى واذكر لقومك تخويفا وتحذيرا يوم يحشر عابدو الأصنام والملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم من العقلاء الذين عُبِدوا من دون الله ، ثم يقال لأولئك المعبودين : ءأنتم دعوتم عبادى إلى الغىّ والضلال حتى دسوا أنفسهم وهلكوا ، أم هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق ، وسلكوا سبيل الهلاك بإعراضهم عن اتباع الرسول ؟ فأجاب المعبودون :

(قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) أى قال المعبودون على طريق التعجب مما قيل لهم لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون ، فما أبعدهم عن الإضلال : تنزهت ربنا مما نسب إليك هؤلاء المشركون ، ما كان يليق بنا ونحن لا نتخذ من دونك أولياء أن ندعو غيرنا إلى ذلك ، ولكنك ربنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم نعمك ليعرفوا حقها ويشكروك فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فى اللذات وغفلوا عن ذكرك والإيمان بك ، فكانوا من الهالكين ، فحينئذ يقال لأولئك العابدين .

(فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى فقد كذبكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم ودعوكم إلى عبادتهم — فيما تقولون ،

فما تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم .

والخلاصة — إنكم لا تستطيعون النجاة لا بالهرب ولا بالانتصار لأنفسكم ، فأنتم معذبون لا محالة .

ثم عمم سبحانه الحكم وخاطب جميع المكلفين فقال :

(ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) أى ومن يكفر منكم أيها المكلفون فيعبد مع الله إلها غيره كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة — نذقه فى الآخرة عذابا كبيرا لا يقدر قدره ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالتهم التى طعنوا فيها على رسوله بقولهم : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق — زاعمين أن هذا مما لا ينبغى للرسول أن يفعل مثله — أردف ذلك بالاحتجاج عليهم بأن محمدا ليس بدعا فى الرسل ، فكلهم كانوا يفعلون فعله .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبير له على أذاهم .

ثم بيّن أن سنته أن يبتلى بعض الناس ببعض ، فيبتلى الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالمرسَل إليهم فيناصبوهم العداء ويؤذوهم ، ليعلم أيهم يصبر وأيهم يجزع ؟ وهو البصير بحال الصابرين وحال الجازعين .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق) أى إن جميع من سبقك من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذى به ، و يمشون فى الأسواق للتكسب والتجارة ولم يقل أحد إن ذلك نقص لهم يغض من كرامتهم و يزرى بهم ، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم فى هذا ، و إنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة وخصائصهم السامية وآدابهم العالية ، و بما ظهر على أيديهم من خوارق العادات ، و باهر المعجزات ، مما يستدل به كل ذى لب سليم و بصيرة نافذة على صدق ما جاءوا به من عند ربهم ـ فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل إذ يأكل و يمشى فى الأسواق ، وليس هذا بذم له ولا مطعن فى صدق رسالته كما تزعمون .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » .

ثم سلى رسوله عن قولهم « أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » بقوله :

(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) أى وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض ، فجعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا ، وهذا فقيرا وحرمناه من لذات الحياة ونعيمها ، لنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغنى ، والملك بصبره على ما أوتيه الرسول من الكرامة ، وكيف يكون رضى كل منهم بما أعطى وقسم له ، وطاعته ربه على حرمانه مما أعطى سواه ـ ومن جرّاء هذا لم أعط محمدًا الدنيا وجعلته يمشى فى الأسواق يطلب المعاش ، لأبتليكم وأختبر طاعتكم و إجابتكم إياه إلى ما دعاكم إليه وهو لم يرج منكم عرضا من أعراض الدنيا يرجو أن يناله ، ولو أعطيتها إياه لسارع كثير منكم إلى اتباعه ، طمعا فى أن ينال شيئا من دنياه .

والخلاصة — لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى حتى لا يخالفوا لفعلت ، لكنى أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليهم بالعباد فينالهم منهم الأذى و يناصبوهم العداء ، فاصبروا على البلاء فقد علمتم ما وعد الله به الصابرين .

(وكان ربك بصيرا) أى وربك أيها الرسول بصير بمن يجزع و بمن يصبر على ما امتحن به من المحن ، ويجازى كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب ، روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انظروا إلى أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هم فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

اللهم اجعلنا من الصابرين على أذى السفهاء ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وارزقنا من لدنك قناعة وغنى نربأ بهما عما فى أيدى الناس وثبت أقدامنا فى فهم كتابك ، و بلغنا ما نرجوه من إرشاد عبادك بما نقدّم لهم من نور يهتدون به إلى صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وصل ربنا على محمد وآله .

تم تفسير هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، لثلاث خلون من صفر سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، ولله الحمد أولا وآخرا .